عزيزي شارل

أو بالأحرى خيي القريب شارل،

أوعا تفكر إني بحكي هـ العم إبعتلك ياه مع حدا غيرك. ساعة الصفا نادرا جدًّا. بحكي كتير بحلل سياسي، بس الحقيقا اللي بشعر فيا ما بحكيا إلا معك. صدقني. حاسَّك كتير قريب.

يا صديقي. بزكر مرا كنت أنا والمعلم بالقيادي، أظن سنة الـ89، وعم نحلل ونحكي إنو أيمتى الخلاص؟ بيقللي، بعدما تنهد طويلاً وقعد ع كرسة مكتبو: "ندي إحساس إنو يومًا ما منوعا وما منلاقي ولا عسكري سوري ع أرض لبنان. وما تسألني كيف.

حدس هـ الزلمي ما بيغلط، وأنا تابعو. وما فرقاني معي أي شي تاني.

وبالنسبي لموقفي كصحافي حر، ما بحياتي ما كنت أنا، مع مين ما كون عم بتحاور. وإشادتي بهادا أو بهيداك، ما بتأسرني فيه، بمقدار ما بتكون إعتراف مني بالحقيقا اللي أنا شايفا، حتى لو كان الشيطان قايلا. أنا يا صديقي كتار من جماعة التيار، وأكيد بإيعاز من عون، بيطلبو مني إنضم لإلن، وأنا برفض وبقول: نحن حلفا، لأني ما بعرف كون إلا بمطرح واحد مش بمطرحين. وبقلك أكتر: ما في مرَّا بيكون عندي محاضرا أو لقاء عبر التلفون مع عون أو ضمن شي نشاط للمعارضا إلا ما بيكونو كلن جايين يتسمعو عليي. وأكتر بعد، في كتير إشيا بيكون بدو عون ياخد فيا موقف، بيبعت مين يسألني. وأحيان كتير بيعمل باللي أنا بقترحو. وهو بيعرف أنا مين وأنا وين. المهم طلبت إني إبعتلك اللي عم بكتبو.

أنا إلي سني وأكتر شوي، عم بكتب زاويي إسبوعيي بالمسيرا إسما: "أقول وقد"... بكتب فيا اللي بدي ياه، وأحيان كتير بكتب تحليل أو مقال. اخترتلك ع السريع نمازج من اللي عم بكتبن، وآخر شي مقال عن العكروت عرفات. ن شا الله يعجبوك. ومن هلق ورايح رح زودك باللي عم بكتبو دايمًا. ن شا الله ما تزهق مني. خيك حبيب. سلام للجميع.

ياسر عرفات... الموت الأخير!

الرابعة فجر الخميس 11 تشرين الثاني 2004، مات ياسر عرفات للمرَّة الأخيرة. قبلها مات مرَّات، من دون أن تُعلن الوفاة. من دون أن يجرؤ أحد على إعلانها. من دون أن يصدِّق أحد أنها ممكنة الحدوث. كانت كل ميتة، من صنع يديه، تدفعه إلى "ارتكاب" أخرى، فيظن أنه كتب لنفسه عمرًا جديدًا، حتى توفاه الله أخيرًا...

... وكان ياسر عرفات. إبن العائلة المقدسية التي طاولتها "النكبة"، وشرَّدت أبناءها في أرض غريبة، وأرض شقيقة. مصر والكويت طبعتا سنوات شبابه الأولى، فتخرج مهندسًا وعمل في مجال اختصاصه، في وقت بدأ يتبلور في شخصيته روح النضال، من أجل استرجاع الوطن السليب، وظهرت فيه قماشة القائد التي تلمسها المحيطون به.

... وكانت حركة "فتح"، و"منظمة التحرير الفلسطينية". إطاران سياسيان وعسكريان احتضناه، وعمل ضمنهما، مع رفقاء كثر. وكانت قضية عربية، على وقع "الأحمدسعيدية"، تحت خيمة الناصرية القومية، حتى إذا ما انتهت بـ"النكسة"، تمرَّد صاحب الكوفية على الخنوع العربي والذلِّ العربي والحكم العربي، ولجأ إلى السِّلاح والفدائيَّة والجماهير، إلى أخذ الحق باليد وبالقوة، إلى معسكرات التدريب تخرج أفواجًا من الذين يهتفون "فداك يا فلسطين"، فيبذلون دمهم في سبيلها، في خطف طائرة، في استهداف منظمة عالمية، في ضرب العدو في عقر داره، في الانقضاض على تظاهرة رياضية عالمية، في تهديد ركائز الأنظمة...

يومذاك، على أثر تلك "النَّكسة" ولد عرفات. وتزامنت ولادته مع مشروع أميركي لحل أزمة الشرق الأوسط، يختصرها بأنها مشكلة "شعب فائض". خمس دول هي: إسرائيل والأردن وسوريا ولبنان ومصر، لستة شعوب هي: الإسرائيلي والأردني والسوري واللبناني والمصري... والفلسطيني.

فكتب "أبو عمار" اسمه في ذاك المشروع، وقال: فليكن الأردن، الحلقة الأضعف يومذاك، الوطن البديل. جمع قواه السياسية و"الدِّبلوماسية" والعسكرية والفدائية والمالية والإعلامية، على أرض المملكة الهاشمية. خيل إليه أن الأمر نزهة، هو المستند إلى صوت الجماهير تهتف باسمه قائدًا لا كالقادة العرب، وتؤيده ثوريًّا تغييريًّا، قادرًا وحده على رمي إسرائيل في البحر، وهو المدرك أن لا ظهر للأردن يحميه، ما دامت اللعبة الدولية شاءت ذلك. هكذا ظن، في لحظة انتشاء وسوء تقدير، فخاب الظن بانتصار الملك حسين، وطرد الفلسطينيين، قادة ومقاتلين ومدنيين إلى لبنان وغير لبنان.

ويومذاك مات ياسر عرفات أول مرة، بموت مشروعه الحلم، الذي لو كتب له أن ينجح، لتغير وجه الصراع العربي — الإسرائيلي.

لم ييأس. قال: فليكن لبنان الوطن البديل. لبنان الذي أقام فيه دولة ضمن دولة، وملأه معسكرات وعمليات تنطلق منه إلى العالم، وعبر حدوده إلى قلب كيان العدو، وأغرقه مالاً وإعلامًا ومناصب. لكن الظرف تبدَّل. وقعت حرب تشرين التي أعادت إلى العرب بعض اعتبار، وظهرت بشائر مؤتمر سلام، التقط أنور السادات خيطه الذي قاده إلى زيارة إسرائيل وتوقيع الصلح معها، ومن ثم أودى به. لم يركب الموجة، ولم يسعفه أنه حمل إلى الأمم المتحدة غصن زيتون في يد، وسلاحًا في الأخرى، فقرر أن مشروع لبنان الوطن البديل ما زال صالحًا... إلى أن طردته إسرائيل من لبنان. فكان موته الثاني.

استكان في المنفى التونسي، ليلتقط أنفاسه. أفلت الوضع من يد إسرائيل في لبنان. ظنَّ أنها سانحة لمعاودة الكرَّة، إذا لم يكن من بيروت والجنوب، فمن طرابلس. فطردته، هذه المرة، سوريا، وردته خائبًا على أعقابه إلى تونس. وشهدت "فتح" انشقاقات، وضعفت "منظمة التحرير"، وصار لكل نظام عربي منظمته الفلسطينية. فكان موته الثالث.

ذرع العالم، في ثمانينات القرن الماضي، أسفارًا ولقاءات، لإبقاء القضية حيَّة في الأذهان والصور. تنقلت إقامته بين بغداد وتونس والقاهرة التي عادت إلى الحضن العربي. لم يترك دولة لم يزرها، ورئيسًا لم يقابله. بيته الطائرة، وحلمه دولة فلسطينية "ولو على ظهر حمار"... إلى أن انطلقت "انتفاضة الحجارة" التي أعادت إلى تلك القضية وهجًا أين منه وهج مقارعة دافيد غوليات. الحجر في يد طفل يقهر آلة الموت والتدمير.

أعلن من تونس الدولة الفلسطينية. عدل في ميثاق منظمة التحرير لإبقاء إسرائيل على اليابسة. قُتل "أبو جهاد" ومن ثم "أبو إياد"، فخفت وهج الانتفاضة، وأحس
أن الدنيا تطبق عليه، وأن صوته بلا صدًى.

احتل صدام حسين الكويت. أيده ياسر عرفات. ظن أنَّ دفعًا جديدًا وضع في رصيده، يعزز مكانته ووضعه التفاوضي من أجل الدولة المعلنة إسميًّا. طرد التحالف الغربي – العربي صدام من الكويت. بات في شبه عزلة. فكان موته الرابع.

... وكان مؤتمر مدريد للسلام. وموقع عرفات فيه متقدم. كثر من الزعماء العرب قالوا: لن نوقع قبل أن يوقع الفلسطينيون. التقت دول الطوق مرَّات، تنسق. وبين أخذ ورد، وجولات مفاوضات عدة بين الوفود العربية والإسرائيلية، كان يُنسج في السِّر اتفاق في أوسلو، عاصمة النروج، بين عدوي الأمس: المنظمة وإسرائيل. فاجأ الاتفاق الجميع، وأزعج بعض دول الطوق. اعترضت سوريا، وطبعًا لبنان، وأحست أخرى، ولاسيما مصر، أنها زوج مخدوع. أما الأردن فتحرر من الإحراج، وعقد هو بدوره اتفاقه الخاص مع الدولة العبرية. وقع اتفاق أوسلو في باحة البيت الأبيض، وفتح الباب على مصراعيه أمام دول عربية عدة لإقامة علاقات، ولو غير رسمية، مع إسرائيل: تونس، قطر، الإمارات، المغرب...

وعاد عرفات إلى غزة والضفة الغربية ليضع الحجر الأساس للدولة الفلسطينية. ظن أن الأمر أيضًا نزهة. لم يدرك، ربما، هو الذي خبر إسرائيل أكثر من غيره، أنها ستريه "نجوم الظهر" قبل أن تعطيه سيادة على شبر أرض، إذا كان ذلك في نيتها أصلاً.

مفاوضات مفاوضات، و"الختيار" الذي تزوج على الثورة وأنجب من لحمه الحي، لا من لحم الأمة، يواجه العقبة تلو العقبة مع دول عربية لم ترق لها خطوته المنفردة، ومع منظمات وُلدت من رحم الانتفاضة الأولى كدرت له عيشه وسلطته، ومع كوادر فلسطينيين اتهم معظمهم بسوء الإدارة والفساد... ومع عروض إسرائيل وشروطها الصعبة التي ذللت بثمن باهظ سددته السلطة الفلسطينية، من حساب الحقوق والأرض وشعب الشتات. إلى أن قتل اسحق رابين، فلم تصل اللقمة إلى الفم، وأحس عرفات أنه مات معه، فكان موته الخامس.

... وكان من كان على رأس السلطة في إسرائيل، ليتابع ما شرع فيه رابين، ولكن من دون جدوى. فالمنظمات الفلسطينية الجديدة بدأت تستقطب الشارع، وعرفات يعي الأمر لكنه غافل عنه، لعله يعزز موقعه في محاكاة الأميركيين والإسرائيليين. كان يتنازل، والغضب الداخلي يتصاعد، والغضب العربي الخارجي أيضًا. ألم يُدعَ علنًا، من منبر لبناني إلى قتل عرفات؟ أولم يحرَّض فلسطينيون على ذلك مرات؟

... وكان أرييل شارون الذي زار المسجد الأقصى مستفزًّا، ثم تولَّى السلطة في إسرائيل. فاندلعت الانتفاضة الثانية التي شهرت السلاح والعمليات الانتحارية في وجه إسرائيل، لا الحجارة، وعاد شعار "لا صلح، لا مفاوضات"، واستراتيجية استرجاع الأرض بالقوة، مستلهمة تجربة "حزب الله" في لبنان. عظم شأن "حماس" و"الجهاد الإسلامي"، وضعف عرفات ومنظماته. لم يرض "فتحويون" بالواقع، فأنشأوا "كتائب شهداء الإقصى" التي حاكت إسرائيل بلغة المنظمتين الأصوليتين. وعرفات راض من جهة، فاستمرت "الكتائب" تعمل وتتبنى عمليات، ومعترض من جهة أخرى، يسجن "المتمردين" ويطلقهم لاحقًا... والسلطة، بشخص "أبي عمَّار"، وفي غياب أي مفاوضات جدِّية، وفي ظل حرب يوميَّة مع إسرائيل ومشروع إسرائيلي بعزل المدن والقرى الفلسطينية بعضها عن بعض، محاصرة في بضع مئات مربعة من الأمتار

في رام الله... وسط صمت عربي وعجز عربي وربما تواطؤ عربي، لم تستطع كلها أن تجعله يخرج مترًا أبعد من مدخل "المقاطعة"، يرى الباحة الخارجية ثم يعود إلى "سجنه" وهمومه. فكان الموت السادس.

مرض عرفات المحاصر. أصر على أن يعالج حيث هو. نفض الأطباء المحليون والعرب أيديهم من إمكان شفائه، ففتحت له باريس باب مستشفاها الأبرز والأشهر. دخله شبه ميت. وبدأ الضرب في جسد الميت، وهو لم يلفظ أنفاسه الأخيرة، معلّقًا بالحياة، بأنابيب وأمصال، عينًا على الخلافة، وأخرى على ربة البيت... إلى أن لُقِّن الشهادتين، ومات موته الأخير.

مات ياسر عرفات. وتيتمت القضية التي حملها خمسة وثلاثين عامًا، فورثتها عنه قيادة جماعية، تتحكم بأعضائها التناقضات: "أبو مازن" و"أبو العلاء" و"أبو اللطف"، و"أبوات" آخرون... وعن يمينهم انتفاضة مستمرة وشعب في الداخل يتجرَّع المعاناة وشعب في الشتات ملَّ الانتظار؛ وعن يسارهم منظمات ليست تحت سلطتهم طامحة هي إلى السلطة، لكنها في نظر "العالم الفاعل" إرهاب يجب اجتثاثه؛ ومن ورائهم قياديون تولوا سابقًا وأبعدوا يحسون أن الوقت حان لاسترداد ما فقدوه؛ وحولهم كيفما وأنَّى اتجهوا إسرائيل؛ ومن أمامهم المشروع الأميركي للشرق الأوسط الكبير الذي افتتح الرئيس جورج بوش به ولايته الثانية... فما العمل؟

قد يكون موت عرفات الذي لن "يهنأ" بدفنه في القدس، كما تمنَّى، هو الحل، فتقوم الدولة الفلسطينية، بصرف النظر عن حجمها وشكلها وسلطتها، على ما تعهد بوش. وقد يكون مشكلة إضافية، فتنتهي القضية الفلسطينية بحرب أهلية وتهجير جديد... فيموت، مرَّة بعد، وهو في قبره!!!

أقول وقد...

حكومتنا مخمَّس مردود

حكومتنا مخمَّس مردودْ
نكابي بِكِلّ القِصْدانْ
والزَّمن بعدو بيجودْ
بِمْواقفْ شِغل الإخوانْ.
***
حْكومي من تلاتين وزيرْ
تَ تشيل الزّير مْن البيرْ
كَرامي وصلح ومنصور
منصور وكَرامي وصلح
وصلح ومنصور وِكْراميان
***

تِشْكيلي من هون وهونْ
صيتا معَجّي كلّ الكونْ
فارس ومراد وجابرْ
جابر وفارس ومرادْ
مراد وجابر وفرسانْ
***

وقت زغير وشغل كتيرْ
ت تْخلِّصنا من التِّعتيرْ
بستاني وضاهر وسكافْ
سكاف وبستاني وضاهرْ
وضاهر وسكاف وبستانْ
***

أللّه الخلقها بيومينْ
بيحمي من صَيْبات العينْ
إرسلان وسابا ووهَّابْ
وهاب وإرسلان وسابا
وسابا ووهَّاب وإرسلانْ
***

موعودين بإزدهارْ
وبْسَبِعْ فحمات كبارْ
هوفنانيان قانصوه وضيقا
ضيقا وهوفنانيان وقنص
وقانصوه وضيقا وهوفنانيان
***

بْنِيِّتْها تْخَلِّص بكّيرْ
وتِقْطَعْ دابر الطْوابيرْ
طابوريان، عضوم، حمود
حمود، طابوريان، عضوم
عضوم، حمود، طابوريان.

جايي تزرع السَّلام

ومش راكب راسا أوهام
سلامي وكَرَم وقصار
قصار وسلامي وكَرم
كرم، قصار وسَلامانْ.
***

رح تعمل إنتخاباتْ
وقالو اللي خلف ما ماتْ
سليمان وخْليفي ومحمودْ
محمود، سْليمان، خْليفي
خْليفي ومحمود وسليمانْ.
***

وشو بْخبِّر عن الإعلامْ
كل شي بالدَّولي تمامْ
الياس وزْعيتر وخازنْ
خازن والياس وزعيترْ
زعيتر، خازن والياسانْ.
***

مع اللي بيصيِّح صيحْ
وفيك تكون ديك وفصيحْ
منقارا، جان لوي، موريس
موريس، منقارا، جان لوي
جان لوي، موريس، منقارانْ.
***

مين قال نسينا المازوتْ
وصندوق المال المفخوتْ
إخوان وإعدا وصحابْ
صحاب وإخوان وأعداءْ
إعدا وصحاب وإخوانْ.
***

كل واحد منّا موعودْ
وإيدو ع قلبو وفزعانْ،
لسان حالو بإيام السّودْ:

ألله يعينك يا لبنانْ!!!

"ستار أكاديمي – لبنان"... برنامج عالميّ

قبل أسابيع من معاودة انطلاق برنامج "ستار أكاديمي"، في نسخته الثَّانية، على شاشة "المؤسَّسة اللُّبنانيَّة للإرسال" التي ستفرد له قناة خاصَّة، نتابعه عبرها، على مدار السَّاعة، ثمَّة برنامج مماثل سيسرق منه الأضواء، بدأ عرضه على شاشة تلفزيون العالم، ينتمي إلى فئة تلفزيون الواقع نفسها.

فمذ وضعنا مجلس الأمن الدَّولي تحت المجهر الدَّولي، بإصداره القرار الرَّقم 1559، راح يتابع يوميَّتنا، بدقائقها والتَّفاصيل، حتَّى المملِّ منها، فيعلِّق على هذه الخطوة، ويقوِّم تلك، ويستنكر هذا الموقف، ويَزين ذاك الإجراء، ويعارض ذلك التَّصرُّف. حتَّى بتنا نشعر أنَّنا مشاركون، على رغمنا، في "ستار أكاديمي" عالمي، مع فارق بسيط هو أن الفائز فيه سيكون أكثر الخاسرين.

أليست هذه هي حالنا؟

رجاءً، لنا مطلب وحيد في هذا "البرنامج": أبعدوا الكاميرات عن حمَّاماتنا، ليس إلاَّ، لأنَّنا نريد أن نقضي حاجتنا، في ما تبقَّى لنا من عمر، من دون تدخُّل خارجي. وشكرًا!!!

عطر:

لنفترض أنَّها ليست حكومة سياسيِّين ورجال أعمال وتكنوقراط وأهل اختصاص وأبناء ذوات، بل حكومة من ثلاثين ملاكًا أرسلهم كبير الملائكة جبرائيل شخصيًّا، وكتب مرسوم تعيينهم بريشة من جناحيه. لنفترض ذلك، ماذا عساها تفعل، على الأقل، وسط غابة الفساد المتنامية، منذ عقود في العقليَّة والإدارة اللبنانيَّتين، على السَّواء، وتكاد تكون الغابة الوحيدة الباقية في لبنان؟

سؤال لم أجد له جوابًا إلاَّ في جعبة الشَّاعر الصَّديق موريس عوَّاد، المملوءة وجعًا وطرائف: "حدا بيرشّ، يا حبيب، كولونيا ع برميل زبالي؟"

فلنجرِّب!!!

تحف:

آهٍ كم هو لبنان غنيٌّ، لو عرف، أو شاء، أن يوظِّف ثرواته في ما يفيد. يكفي، أيُّها السَّادة الكرام، أن يجمع يوميًّا ما يتحفنا به أهلُ السِّياسة، المتضلِّعون منها والطارئون عليها، على السَّواء، من مواقف تتفاوت بين العنتريَّات الفارغة، والدِّيباجات المرصَّعة بالخشب والعفن، والمطوَّلات التي تصلح لتكون ملاحف تقي فقيرًا معوزًا مشرَّدًا برد الشِّتاء... ولحقَّ على بيع تحف، لا تتَّسع لها قصور، ولا حتَّى متاحف الأرض جميعًا.

وآخر التُّحف أنَّ هذه الحكومة الجديدة – قال – هي سلاح "دولة القانون والمؤسَّسات" في مواجهة الشَّرعيَّة الدَّوليَّة.

... "معانا صحون، معانا كبَّايات، معانا تحف ومتاحف". هكذا نادى البائع اللُّبناني الجوَّال على بضاعته، في سوق الأوقيَّة، ومجاهل أفريقيا، وأحياء بنغلادش... فلم يستجب نداءه أحد. كسدت بضاعته، وقبل أن يعود أدراجه خائبًا، سأله أحدهم عن فناجين قهوة... أجابه أن البصَّارات في لبنان والعالم صادرها، من زمان، ليكشفن لنا طالعنا لقابل الأيَّام، وما زلنا ننتظر أن يكون حسنًا. قولوا: إن شاء الله!

قرص لبناني في العرس الأميركي

من أبرز المؤثرات في نتائج الانتخاب الرِّئاسي في الولايات المتَّحدة الأميركيَّة، بعد أسبوعين، عامل لبناني... ليصحَّ المثل القائل: في كلِّ عرس له قرص.

فالمرشَّح الثَّالث اللُّبناني الأصل رالف نادر ماض في معركته الرِّئاسية، في مواجهة الرَّئيس المرشَّح جورج بوش المتطلِّع إلى ولاية ثانية من أربع سنوات، والسِّناتور المرشَّح جون كيري الرَّاغب في كرسيِّ البيت الأبيض.

واستمرار ترشُّح نادر أحد العوامل المهمة التي قد تقلِّل فرص كيري في الفوز، لأنَّه يحرمه ثلاثة في المئة من الأصوات في تسع ولايات أميركية، في حين تبدو المعركة بين المرشَّحين الآخرين، "على المنخار"، بحسب ما تظهره استطلاعات الرَّأي وتشير إليه التَّوقعات. أي أن نادر، الذي يعارض بوش أكثر من كيري، يخدم الأوَّل على حساب الثَّاني، أدرى أم لم يدرِ.

هذا كلُّه طبيعي في إطار لعبة الديموقراطية الأميركية، ولن يستغربه أحد، أو يخشاه. لكنَّ الخشية أن ينبري أحد جهابذة التَّنظير عندنا ويقول إن استمرار نادر في حلبة السبق الأميركي أملته عليه المعارضة اللبنانية التي تراهن على بقاء بوش وزمرة المحافظين الجدد في الإدارة الأميركية، من ضمن مخططها لإسقاط الحكم القائم اليوم في لبنان، والحلول محله. وقد تذهب المخيلة بالجهبذ المذكور إلى حد القول إن العماد ميشال عون ولقاء قرنة شهوان والقوَّات اللبنانية "لهم يد" في الأمر، وسط تغاض عنه من وليد جنبلاط والمنبر الديمقراطي وحركة اليسار الديموقراطي.

لا يستغربنَّ أحد صدور موقف من هذا القبيل. انتظروا وستَرَوْن!

لِمَ الجواب؟:

وصف وزير الخارجيَّة السوريَّة فاروق الشرع، على ما استنتجت صحف وعنونت بالخطِّ العريض، حركة مجلس الأمن الدَّولي المتمثلة بالقرار الرَّقم 1559 وآلية متابعته وتطبيقه، بأنَّها انشغال بأمر تافه، وغضُّ طرف عن قضايا جوهريَّة.

وفهم من كلام معاليه أن القضيَّة الجوهريَّة هي الصراع العربي – الإسرائيلي. وفهم أيضًا أنَّ الأمر التَّافه ليس سوى الوجود السوري في لبنان. وعليه، نسأله: ما دام هذا الوجود قضيَّة تافهة، لِمَ التَّمسُّك به والإصرار عليه، منذ ثلاثة عقود؟ ومنذ متى تدافع سوريا عن قضايا تافهة؟... ولن ننتظر الجواب!

دخلت سوريا من أجل سوريا...

في علم السِّياسة، قديمه والحديث؛ وفي علم الإستراتيجيا قبل أن تفرَّغ العبارة من مضمونها على ألسنة سياسيِّي آخر زمان في لبنان؛ وفي علم الجيوبوليتيك، أو الجغرافيا السياسية، الحديث نسبيًّا؛ وفي علم الجيوستراتيجيا المرتبط بما سبق ذكره؛ وقبل كل هذا وإبانه وبعده، في علم التاريخ، وهو أكبر معلِّم...

في كل هذه العلوم، ثمة إجماع على ثابتة واحدة هي أن الدول تتعامل في ما بينها انطلاقًا من مصالحها، أوّلاً وأخيرًا. أي أن ليس بين الدول، على ما عوَّدنا العرب، "شقيق" و"حبيب قلب" و"طويل عمر" و"تسلملي" و"تقبرني" و"تكرم عينك". وبالتالي ليست الدُّول جمعيات خيرية أو منظمات إنسانية أو مؤسسات لا تبغي الربح.

مناسبة التَّذكير بهذه الثابتة، الكلام الذي لا ينتهي عن الدور السوري في لبنان، مذ كان هذا الدور، قبل أكثر من ثلاثة عقود، وبخاصَّة ما تضمنه خطاب الرئيس بشار الأسد الأخير، في الشق اللبناني، وقد احتل أكثر من ثلث الخطاب، وما أثاره من ردود فعل مؤيدة ورافضة.

وعملاً بمفهوم تلك الثابتة، لا يمكن أن نستنتج سوى الآتي: أن سوريا دخلت لبنان، مباشرة أو بالواسطة، من دون استئذان أحد، في ظرف سياسي كان يتطلب منها تعزيز وضعها في "جبهة الصمود والتصدي" لمشروع السلام أو التسوية الذي بدأت ملامحه تظهر على أثر حرب الأيام الستة، العام 1967، ومن ثم بعد حرب تشرين 1973، وفي ما بعد في مؤتمر جنيف، وصولاً إلى خطوة الرئيس المصري الراحل أنور السادات التي أنتجت معاهدة كمب ديفيد، وانتهاء بمؤتمر مدريد. وكان هدف سوريا امتلاك أكبر قدر من أوراق التفاوض التي كان لبنان يجمعها على أرضه، بعدما تحول ساحًا لتنفيس أزمة الشرق الأوسط، منذ العام 1969... ساعدتها في ذلك براعة في حسن قراءة التطورات والإفادة من التناقضات الدولية والعربية التي وفرت لها تغطية مهمة لمشروعها.

في ذاك الظرف السياسي المفصلي، دخلت سوريا لبنان، مهما تعددت الحجج، بين حماية المسيحيين، أو وقف ذبح الفلسطينيين، أو حماية خاصرتها الرخوة في مواجهة إسرائيل، أو توفير الاستقرار والأمن ووضع حد للحرب في لبنان... وفي اختصار، دخلت سوريا لبنان من أجل سوريا... أولاً وآخرًا. ومن يضع ذاك الدخول في خانة أخرى، بخاصة من السياسيين والمحللين اللبنانيين، لا يكن مجرد متملق أو ساذج أو جاهل أو مكابر أو عديم البصيرة، فحسب... بل هو أيضًا عدو العلم الذي لا يعترف بـ"الزَّعبرات"، وعدو التاريخ الذي لا يرحم، أحيانًا، في حكمه على الأحداث والناس. فهل من يعتبر من العلم والتاريخ؟

رسالة سياسية:

من يحمل على مواقف الحقِّ التي تتخذها المعارضة اليوم، ويعيِّر أهلها أحيانًا بأنَّهم قلَّة، نسي أمرين: الأول بيت شعر للسَّموأل، الشاعر الجاهلي الذي يضرب به مثل الوفاء، يقول: "تعيِّرنا أنَّا قليلٌ عديدُنا/ فقلت لها إنَّ الكرامَ قليلُ". والثاني مبدأ في المسيحية يقول: أنت والحق غالبية...

نحن، المعارضين، راضون... ومبروك على الذين يعيِّروننا بقلة العدد ويهددوننا، بين حين وحين، أن بينهم من يأنف اللسان عن لفظ اسمه، ويتقيَّأ القلم إذا كتبه...

لبنان الحقيقي:

أخبرنا عالم الفضاء الأميركي – اللبناني العامل على استكشاف المريخ إدغار شويري، أن بين المجموعة التي يتعامل معها في الولايات المتحدة في مشروعه الرائد، وعدد أفرادها 18، ثلاثة لبنانيين على الأقل، هم إليه: تشارلز العشي ومصطفى شاهين وجورج حلو. أي أكثر من ربع مجموعة العلماء هذه من اللبنانيين.

هذا هو لبنان الحقيقي، وليس ذاك الذي تحاول تسويقه من تدعي أنها دولة قانون ومؤسسات، وهذه هي – بالإذن من الشاعر يونس الإبن – "هـ الكم أرزي العاجقين الكون"... لا تلك الصور البشعة المسوَّقة عن لبنان والتي بهدلتنا وجرصتنا... وما أكثرها.

لإدغار شويري وزملائه، ولكل لبناني شرف اسم لبنان في العالم، وما أكثرهم أيضًا، نقول: مباركة الأرحام التي حملتكم وولدتكم.

اصطراطيجيَّة!!!

أفكار مبعثرة، لكنَّها تشكِّل جانبًا من مشهد حياتنا اليوميَّة، وتختصر فوضاها... واستراتيجية العبث التي رُسمت لنا:

– معه حق رفيق الحريري في رده على حملات الإنتقادات التي كانت تستهدفه، يوم كان يمارس صلاحياته (وحبَّة مسك) رئيسًا للحكومة. كان يقول: البلد ماشي، والشُّغُل ماشي... وتختمها الأغنية بـ"لعيووووونـــك"!

بعد أعوام على ذاك الشِّعار، ثبتت، بما لا يدع الشَّك، صحَّته: فالحكم الممدَّد له يترجَّح بين الإستمرار والطَّعن في شرعيته؛ والحكومة المستقيلة من زمان، صارت أثرًا بعد عين، أما تلك العتيدة المنتظرة فدون ولادتها ألف عقبة وعقبة؛ والمؤسسات الرسمية والإدارات العامة لم يتغير عليها وفيها شيء، روتين بروتين، وبَالله تصبُّوا هـ القهوة وزيدوها هال؛ والمواطن يتابع ويتنفس ويأكل ويقصد الداون تاون ويكسدر في الربوع اللبنانية ويتسوق ويمضي إلى رزقه، وألله يدبِّر.

أي أن البلد يمشي والشغل يمشي، بدولة من هذا الطراز وبلا دولة. بهم ومن دونهم، البلد ماشي والشغل ماشي، فما نفع وجودهم على الكراسي؟ ألم تستوقفهم هذه المفارقة؟

– غريب البيان الرَّسمي الذي يذكِّر اللُّبنانيين بالعودة إلى التوقيت الشتوي. ومكمن الغرابة أن الدَّولة ما زالت تغشُّ مواطنيها، حتى في أمر بسيط كهذا. فهي، مذ تحررت قضيتنا من أسر فرضه زمن المقايضات والصفقات، وصارت في عهدة المجتمع الدولي، باتت تسير وفق توقيت الأمم المتحدة. لا أحد يقرر أن يتنفس فيها، إلا في ضوء اجتماع لمجلس الأمن، أو تقرير لكوفي أنان، أو اجتماع بين هذا وذاك من قادة العالم، أو وضع آلية تنفيذ لهذه الخطوة أو تلك.

فلتقلع، دولتنا المذكورة أعلاه، التي تحدَّت بادئ ذي بدء الأمم المتحدة وحاولت الإحتيال عليها وعلى قراراتها، عن خداعنا. ولتعتمد، من الآن فصاعدًا، توقيت نيويورك، لنضبط ساعاتنا عليه. فلا نلعن حتى السَّاعة التي في معصمنا، ولو كانت من ذهب ومرصعة بالإحجار الكريمة، والزمن الرديء الذي ولدنا فيه وما زلنا نعيشه.

– 22 ساعةً تقنينًا كهربائيًّا في اليوم. وماذا بعد؟ المسؤولون، جميعهم، على الكراسي؛ والحجج المسوقة لتبرير الوضع هي نفسها: غلاء أسعار النفط عالميًّا، وعدم وصول باخرة الفيول، وقصور موازنة مؤسسة الكهرباء عن تلبية الحاجة... وفي المقابل، تأفُّف لدى المواطنين المتضررين في حياتهم اليومية ليس إلاَّ. فلا مساءلة، ولا تظاهرة، ولا إضراب، ولا عصيان، ولا...

عندي حل. إذا كانت هذه الخطوات متعذرة التنفيذ، لئلا يتضرر السلم الأهلي أكثر، لماذا لا نستغني عن معامل إنتاج الطاقة، ونصل الشبكات وخطوط التوتر العالي، مباشرة بالسادة المسؤولين، فيتوافر التيار إلى يوم القيامة. أليس كل واحد

منهم، في حد ذاته، يهز البدن إذا تكلم أو اتخذ موقفًا أو تصرف؟ أوليس كل منهم يكهرب؟ قُلْه شركةَ كهرباء حية؟ فلنستخدم طاقتهم هذه في ما يفيد الوطن، مرة في العمر على الأقل، ولهم عند ربهم، بعدذاك، الأجر والثواب.

– الإستراتيجية كلمة كبيرة ومهمة تعني، في بساطة، التخطيط لأجل طويل، وتعتمدها الدول أو الجيوش أو الشركات الكبرى. لكنها تحولت على لسان بعض المسؤولين لدينا، صنفًا من أصناف البطاطا مثلاً. ألا تسمعونهم، وهم يتلفظون بها، بما ينم عن سعة معرفة واطلاع وكبر مسؤولية، يقولون: اصطراطيجية؟

– حاشية: "أبو فؤاد" أريد كيلو بطاطا بلدية للقلي، وكيلو بطاطا مصرية للطبخ، وكيلو بطاطا اصطراطيجية لأنني سأدلي بتصريح، بعد قليل، على التلفزيون. ثلاثة في واحد. رزق الله على أيامك يا "أبا فؤاد".

كم؟ وأين؟ وإلى أين؟... والمهم!!!

بين السياسة والأغنية وحدة حال أحيانًا. وعليه، لم أجد أجوبة عن أسئلة كثيرة تتزاحم في رأسي، مذ بدأت التطورات اللبنانية والإقليمية والدولية تتسارع بوتيرة مخيفة، إلا في أغنيات، كلما رددتها شعرت بارتياح كبير وسرور عظيم، علَّها بذلك تطفئ لظى حيرتي:

* كيف تقرأ إعادة الإنتشار السوري الجارية اليوم؟ السؤال ليس جديدًا، وكانت طرحته عليَّ، هو نفسه، ولكن قبل ثلاثة أعوام، ولمناسبة أول إعادة انتشار، محطة تلفزيون عربية كبيرة؟ أجبت، يومذاك: أولاً إن تلك الخطوة تأخرت عشرة أعوام، وثانيًا إنها فعل غامض لأن لا أحد يعرف كم كان عدد الجنود السوريين وكم أصبح، وأين كانوا وإلى أين ذهبوا، وثالثًا ليس المهم أن يتم الإنسحاب من المواقع الأرضية، المهم أن يتم من رؤوس بعض المسؤولين اللبنانيين.

وأجيب اليوم الجواب نفسه... ولا يخطر في البال، تعليقًا على ما يسمى إعادة انتشار ووفقًا لما يسمى "اتفاق الطائف"، ما بقي الإنسحاب الفعلي غير ناجز، سوى فلسفة الأغنية الرحبانية الفيروزية: "تعا ولا تجي...".

* هل ينجح السيد عصام فارس، صديق آل بوش، ولاسيما منهم الأب جورج، في ثني نجل صديقه جورج الإبن رئيس الولايات المتحدة الأميركية، عن المضي في تنفيذ القرار الرقم 1559، وتخفيف الضغوط عن لبنان وشقيقته؟ نعم سينجح، وسيكتب التاريخ أن اجتماعًا عقد على هامش الدورة العادية للجمعية العمومية للأمم المتحدة، ذات سنة، بين "الأنكل سام والأنكل عصام"... و"تيتي تيتي، متل ما رحتي، متل ما جيتي".

* إلى أي مدى يصح أن يعوِّل مسؤولون ومنظِّرون لبنانيون كثر على "وشائج القربى والمصاهرة" بين اللبنانيين والسوريين، لتبرير تمسكهم بالدور السوري، وجودًا وحضورًا ووصاية وتدخُّلاً في أصغر شاردة وواردة، من ضمن سلة من الإعتبارات تبدأ بالصراع العربي – الإسرائيلي، وتمر بالخيارات الإستراتيجية، ولا تنتهي بوحدة المسار والمصير؟

هؤلاء يأتون بالدب إلى كرمهم، وفق هذه القراءة. فإذا كانت الحال هكذا بين لبنان وسوريا، ولنبالغ في الإفتراض أن خمسة ملايين زيجة تمت بين أفراد الشعبين مذ أصبحا في دولتين، فماذا نقول عن الحال بين لبنان و... البرازيل حيث يعيش اليوم عشرة ملايين لبناني ومتحدر من أصل لبناني، وفق اعتراف كبار المسؤولين البرازيليين، بعظمة لسانهم؟ هذا، ولم نأت على ذكر مليوني لبناني في الأرجنتين، ونحو مليون في أوستراليا، ومثلهم أو أكثر في الولايات المتحدة، من دون أن

ننسى الترحم على من سبقونا وسبقوهم إلى دنيا الخلود... مذ هاجر إبن البشعلاني من صاليما قبل أكثر من 150 عامًا.

أغنية "يا جار الرضى" تصح في الحال الأولى. ولكن أين منها الأغنية التي كتبها يونس الإبن ولحنها وليد غلمية وغناها سليم الجردي قبل 40 عامًا: "ملو الدني لبنان"... و"لبنان شو لبنان، هـ الكم أرزي العاجقين الكون"؟

* ماذا يقول حلفاء سوريا الذين سلطوا ألسنتهم على القرار الرقم 1559، تجريحًا واستكبارًا وتحدِّيًا وممانعة ورفضًا وانتصارات فارغة، بعدما اعترف السفير السوري في واشنطن عماد مصطفى بأن إعادة الإنتشار ترجمة لتفاهم أميركي – سوري، أي بعبارة غير دبلوماسية استجابة للقرار المذكور؟ ليس لهم سوى أن يرددوا: "وصَّلتينا لنصّ البير، وقطعتي الحبلي فينا"... وألف يا ويلاه.

* وماذا تقول المعارضة، أو قل المعارضات، في ضوء ما تقدَّم؟ أظن أنها ستعود إلى ترداد المواويل القديمة والأغنيات الشعبية: هذا يصدح "منبقى هون ما منترك بلدنا" أو "نيّال العندو بلبنان مرقد عنزي زغيّورا"؛ وذاك يصيح بالمغتربين "يا مهاجرين رْجَعو، غالي الوطن غالي" أو "لو بتشكّ براسك ريش، بالغربي ما فيك تعيش"؛ وذلك "يمسك على الدبكة" مع زكي ناصيف ويهتف "راجع يتعمر لبنان".

آه... لو يعلمون!!!

هي ثلاثة مواقف استوقفتني، في بحر الأسبوع، لم تكتمل صورتها في ذهني إلا بثلاثة تعليقات:

* استفاض، ويستفيض، أهل التَّمديد، كبيرهم والصَّغير، يوميًّا، في الكلام على مشاريع إنسانية وإنمائية ستتحقق، واجتراح حلول لأزمات عالقة، من زمن، في السياسة والاقتصاد، ووعود ذات اليمين وذات اليسار، فيها من البريق واللمعان ما يعجز عن توفيره مسرح استعراضي. وكل ذلك في نصف الولاية الإضافي، أي في ثلاث سنوات... فقط لا غير.

... أذكر، وكنت في بداية عهدي في الصحافة، أنَّني أنجزت صوغ خبر طويل عن انتخاب خافيير بيريز دي كويّار أمينًا عامًّا للأمم المتحدة، مطلع الثمانينات من القرن المنصرم. دفعت بالخبر إلى مدير التحرير الزَّميل راجح الخوري لقراءته واستخلاص مادَّة منه للصفحة الأولى، وراقبته وهو يضع العناوين الرئيسة والفرعية. وحين وصل إلى برنامج عمل دي كويّار ونيَّته، إبَّان ولايته الممتدة على أربع سنوات، التصدي لأزمات ومشكلات عالمية وإقليمية، عصت وما زال بعضها عاصيًا، على المجتمع الدولي برمَّته، استوقفه الأمر، وأرسل ضحكة طويلة عالية، واختار لذاك المقطع، "من قلب مجروح مقهور"، عنوانًا فرعيًّا، فكتب: "آه... لو يعلم"، مرفقًا بعشرات من علامات التعجب.

فعلاً آه... لو يعلمون!!!

* لم أفاجأ، شخصيًّا، بقول وزير الخارجية السورية فاروق الشرع، في كلمته أمام الجمعية العمومية للأمم المتحدة، وفي حديثه إلى "المؤسسة اللبنانية للإرسال"، إن سوريا، أي بلاده وشقيقتنا، لا تهيمن على لبنان، وأنها لم تتدخل في فرض التمديد الذي عزاه إلى إرادة 96 نائبًا صوَّتوا لهذا الخيار تحت قبة البرلمان اللبناني، الواقع في ساحة النجمة، في وسط بيروت، عاصمة لبنان.

أنا أصدِّقه، عن حق وحقيق، وثمة كثر يصدِّقونه، وآخرون يودُّون تصديقه... ولكن هل يصدِّق هو نفسه؟ تلك هي المسألة!

* "إنتفاضة" أهالي مجدل عنجر، احتجاجًا على وفاة اسماعيل الخطيب، إبنها الموقوف في عداد "الشبكتين الإرهابيتين" التَّابعتين لتنظيم "القاعدة"، في سجنه، في وجه وزير الدَّاخليَّة الياس المر، ومطالبتهم بإقالته وتهديده بـ"المرِّ" وبالويل والثبور وعظائم الأمور، ذكَّرتني بانتفاضة الشباب اللبناني في 9 آب من العام 2001، أمام قصر العدل في بيروت، احتجاجًا على توقيفات 7 آب.

عامذاك، جُبه الطلاب الذين تظاهروا بأسلوب سلمي حضاري، بالعنف البشع القذر الأعمى الحاقد اللئيم. بأعقاب البنادق، ضربوا، وبالمسدسات. وقمعوا ركلاً ورفسًا ولكمات. ومسحت بهم الأرض. وديست كراماتهم وشتمت أعراضهم وانتهكت حقوقهم... على مرأى ومسمع من رجال دولة القانون والمؤسسات، وحكومة دولة القانون والمؤسسات، وسفراء الدول العربية والأجنبية المعتمدين في دولة القانون والمؤسسات، وأمام قصر العدل العامل بهدي دولة القانون والمؤسسات... ولم يحاكَم أيٌّ من المعتدين، علمًا أنهم معروفون، واحدًا واحدًا؛ حتى ولم يعتذر أحد بعد عن ارتكاب تلك الجريمة النكراء.

وأمسِ، في مجدل عنجر، نزلت دولة القانون والمؤسسات عند "غضبة" الأهالي، التي لم تكن سلمية، ومن أبرز ضحاياها مركز للأمن العام وآخر للجمارك وطريق دولية يعشق سلوكها يوميًّا رجال دولة القانون والمؤسسات... فانصاعت، من فورها، لأحد مطالبهم، وأطلقت موقوفتين في عداد إحدى الشبكتين "الإرهابيتين"... وثمة مطالب أخرى تنتظر التنفيذ.

تملكَّني الأسف، وأنا أراقب مشهد الأمس القريب وأتذكَّر مشهد الأمس البعيد، وأنعى حال القانون والمؤسسات، في دولة القانون والمؤسسات. وما كدت أستكين، حتى سمعت النائب فارس سعيد، على محطة "العربية"، يصف ما حدث بأن الوزير المذكور دأب مذ تسلَّم حقيبة الداخلية، مداورة، على "بيع جزء من المسيحيين اللبنانيين من سوريا، وبعض المسلمين اللبنانيين من الولايات المتحدة الأميركية".

ذهلت لتعليق النائب الصديق. وصدَّقته. ووددت أن أعرف كم كان سعرنا... بالجملة وبالمفرَّق!!!

حكومة موسَّعة من الآلات الموسيقية!

كانت جلسة طرب بدوية، أهلية بمحلية، أي لا فرق فيها بين أداء سليم ونشاز عظيم، وقد استضافها مضرب من مضارب الجاهلية، لم يأتِ على ذكره أي من الشعراء أو الرواة أو المؤرخين. هكذا تراءت لي الأجواء التي سبقت ورافقت وأعقبت الإستحقاق الرئاسي.

ثمة دعوة أهلية بمحلية اليوم إلى طي الصفحة. ولكن مَن سلَّط، من الخارج، عينيه علينا، مَن يقنعه باستجابة تلك الدعوة؟ وكيف نواجه مجتمعًا دوليًّا قال كلمته فينا، ولم يمشِ، بل تراه منتظرًا تنفيذ ما طلب... وإلاَّ.

وعلى رغم ذلك، ينصرف "الأهليون بمحليين" إلى شؤونهم، كأنهم هم المجتمع الدولي الصحيح في مواجهة المجتمع الدولي الكاذب. ومن أبرز مشاغلهم اليوم، التحضير لحكومة جديدة. ومراعاةً للنظير، وما دام الطرب دائرًا على كل المستويات، أقترح على أهل الحل والربط، "الأهليين بمحليين"، تشكيلة وزارية أعضاؤها آلات الموسيقى، لعلها تكون بديلاً أكثر فاعلية مما يخبئه لنا قابل الأيام. وإليكم مرسوم تأليفها:

* المادَّة الأولى – تؤلف الحكومة من السادة:

– الكمان: رئيسًا للحكومة. فهو الآلة الرئيسة في أي فرقة. وكم يستأهل المنصب، خصوصًا إذا استلهمنا وضع الشيخ رفيق الذي عادها كمان وكمان منذ اثني عشر عامًا، وثمة من تنبأ له بأن يبقى كمان وكمان حتى الـ 2010.

– التشيللو: نائبًا لرئيس الحكومة. فهو من فصيلة الكمان، ودوره مكمل، إن لم يكن مجرد ضيف شرف، ولو كثرت اللجان التي يكلَّف ترؤسها.

– العود: وزيرًا للداخلية. فهو سيد الطرب، و"الساحة له"، ومنه العود والقضيب والهراوة وخرطوم الماء وعقب البندقية.

– الناي: وزيرًا للمال. فهو كما خزينتنا، لا يستقر فيه الماء (وهي المال) إذا مر به. وعليه أن يعين مستشارين له المجوز والقرنيطة والعنيِّق والركوردر والفلوت...

– الطبل: وزيرًا للخارجية. فهو قوة صوت على الفاضي، وصدًى لصوت آخر.

– الرق: وزيرًا للعمل. فاسمه منه وفيه، خير شاهد على وضع العامل اللبناني.

– البوق: وزيرًا للإعلام. مثلما هي وزارات إعلام الأمة العربية، أبواق للأنظمة ليس إلا.

– الكونترباس: وزيرًا للإقتصاد... حتى إذا سُدَّت السبل في وجهنا، وجِعْنا، يكفينا خشبه لإشباعنا. ما كلنا ثلاثة ملايين.

– القانون: وزيرًا للإصلاح. فهو الأساس. إسم على مسمًّى على الورق، ولا يبقى سوى التطبيق.

– الربابة: وزيرة للعدل. أهل العدل يشكون من استهدافهم بالحملات. والمستهدفون يشكون ظلم السلطة ووضع القضاء. شكوى بشكوى، والمناحة قائمة، ومن غير الربابة لمصاحبة موقف كهذا؟ أكثروا من استعمال محارم الورق.

– البيانو: وزيرًا لحقوق الإنسان. فهو غير عنصري، لا يفرق بين أسود وأبيض، وابن طبقة عالية أو طبقة دنيا. الجميع عنده سواسية.

– الأكورديون: وزيرًا للرياضة والشباب. فهو في تحركه جيئة وذهابًا، أكثر من يمارس الرياضة، والأخبر في شؤونها وشجونها. والرياضة للشباب. جِدْ لي شابًّا بعد، خارج محيط السفارات، وخذ ما يدهش العالم.

– الكيبورد: وزيرًا للتكنولوجيا والعلوم. فهو فرقة موسيقية قائمة في ذاتها، وصندوق تتبارى الشركات العالمية على إدخال أحدث صرعات التكنولوجيا فيه.

– الدرامز: وزيرًا للدفاع. قليلة كم هو ذو هيبة حين يملأ المسرح؟ تكفي نظرة إليه ليرتدع ألف عدو وعدو.

– الغيتار الكهربائي: وزيرًا للطاقة. فهو على الأقل وإذا انقطع التيار، يظل يصدر صوتًا. احتياطه منه وفيه، وبلا جميل الفيول والغاز ومؤسسة الكهرباء وزحمة المستشارين والفواتير الملغومة والجباية الناقصة.

– الدربكة: وزيرة للسياحة. بما أن السياحة عندنا أن تبهرنا دشداشة في الداون تاون، أو نفس نارجيلة في بحمدون، وكبة نيئة وتبولة في أي مطعم، فإن الدربكة هي أفضل من يواكب هذه الحركة السياحية النشطة. وننسى بالتالي، مثلاً، بعلبك التي قال جورج برنارد شو إنها لو كانت قائمة في بريطانيا لألغت الضرائب عن الشعب البريطاني.

– الكاتم: وزيرًا للأمن. فهو يفعل فعلته على السكَّيت، ولا من شاف ولا من دري. بئر عميقة حيث يبقى السر محفوظًا إلى الأبد.

البزق: وزيرًا للمغتربين والمهجرين. فهو آلة المشردين في الأرض. ومن مثل مغتربينا ومهجرينا تليق بهم صفة المشردين؟

– السيتار الهندي: وزيرًا للأشغال العامة. فهو ورشة قائمة بخشبه وأوتاره، مثل حال الأشغال العامة في لبنان، حيث يتطلب إنجاز جسر بسيط تدخل أعلى المراجع، اكثر من مرة!

– آلات النفخ النحاسية: وزيرة للصحة العامة. فهي تتطلب مجهودًا مضاعفًا للنفخ فيها، وتوحي بأن من يعزف عليها، وقد تضخمت وجنتاه، أن صحة البلد بألف خير. وهي قادرة إذا فُكِّكَتْ على صنع آلاف الأسرَّة وبناء مئات المستشفيات لتطبيب الشعب اللبناني مجَّانًا.

– الآلات الفولكلورية: وزيرة للثقافة. الفولكلور والتراث جزء من ثقافة أي شعب. فتكون الفرصة سانحة للتعرف إلى مختلف الثقافات وتفاعلها على أرضنا، ردًّا على صراع الحضارات.

– "أورغ" جان ميشال جار العملاق: وزيرًا للصناعة. فهو مصنع ضخم يفوق إنتاجه الموسيقي ومردوده المالي على صاحبه، كل ما تنتجه مصانعنا اللبنانية التي تفلس، وا أسفاه، تباعًا.

– آلات البركيشن الأفريقية والأميركية اللاتينية: وزيرة للزراعة. لأن في ديكورها على المسرح من الأشجار والنباتات والأعشاب، ما يملأ سهل البقاع ويزيد.

– الديابازون: وزيرًا للتربية. فعليه تدوزن الآلات الموسيقية جميعًا. لا يخطئ، فيكتب التاريخ وتعد المناهج وسبل التعليم ووسائله، في مختلف المراحل، وفقًا للأصول.

– الكزيلوفون والكلافسان والتيمباني والهارب: وزراء دولة. فهذه الآلات الأربع ضيفة شرف على فرقنا الموسيقية، كما هي حال وزراء الدولة عندنا. تنفيعة من أجل اصطلاح التوازن الطائفي. ويمكن إيكال شؤون البيئة والمجلس النيابي والبلديات والعلاقات العربية إليها، للبرستيج فحسب.

* المادة الثانية:

مرسوم يبلَّغ ولا ينفَّذ، ولو دعت الحاجة. صدر في بيروت عن مزاجنا الشخصي، مذيَّلاً بتوقيع: "عاش الطرب وأهل الطرب". مع تحذير بأن حقوق المؤلف محفوظة جميعًا... وعن بكرة أبيها.

حدثني السابع من آب... قال

7 آب الذي كنت شاهدًا عليه، قبل أن أنضم إلى قافلة شهدائه الأحياء، جاءني في ذكراه الثَّالثة، حانقًا على نفسه، معتذرًا من ضحاياه الكثيرة، مودِعًا أوراقي أسرار خزانته. لم أرسل وراءه زوَّار فجر أو ظهر أو عصر أو مساء أو ليل. مَثُل أمامي من تلقائه، غير مخفور، ولا مقيَّد، ولا معصوب العينين. حدَّثني، حدَّثني، قال:

"انتظرت لحظة ولادتي، عامذاك، بفرح ما بعده فرح. وتوقَّعت لنفسي مكانًا ومكانة في روزنامة الزَّمن اللُّبناني، أنا الوافد إليها، بعد ساعات على ارتفاع الصَّلوات وقرع الأجراس وتزيُّن السَّماء بأنوار المفرقعات، احتفاءً واحتفالاً بعيد تجلِّي الرب. أنا الوافد بعد فرحة التقاء جبل على جبل، وغفران الخطايا التي ارتكبت في الجبل، فدمعت عيناي غبطةً بلقاء الأخ أخاه، وببسمة ارتسمت على ثغر كلِّ بيت مهجور، وبضحكة طلعت من قلب كلِّ حقل متلهِّف إلى تقبيل المعول. على هذا الأمل، أفقت نشطًا، ذاك الثَّلاثاء الذي وقع فيَّ من العام 2001. غسلت وجهي بندى الفجر، ووضعت الشَّمس بين حوائجي، لأسرع في إهدائها إلى روَّاد الشَّواطئ والمصطافين، وأمسح بأشعَّتها جباه الفلاَّحين، وخصبَ التُّراب، وخضرة الشجر، ووجه الثَّمر...

سعدت بساعاتي الأولى من عمري القصير، غير آبه بالسِّياسة وأهلها وألاعيبها والأحابيل. حسبي فرح الناس بي وأدعيتهم لله مسبِّحين باسمه، شاكرين له فيض نعمه عليهم، حتى أعمت بصري وبصيرتي عمَّا كان يُحضَّر له في الخفاء، في الغرف المعلنة والغرف السِّرِّية، في وضح النهار وتحت جنح الظلام.

حتَّى كان العصر. سمعت ضوضاء، هدير مركبات، قرقعة سلاح، خبط أقدام، أوامر أوامر... فلم آبه. كنت أتهيَّأ ممنِّيًا النَّفس بسهرة جميلة، أودِّعُ بعدها الأرض، سعيدًا، لأنضمَّ إلى قافلة الأزل، أكثر سعادة ورجاء. شعرت أنَّ ماءً يجري من تحت قدميَّ، وأنا عنه غافل.

لحظات وتمرُّ، قلت في نفسي. ولكن! ثَمَّة حدث جلل يسجَّل على مروري في الزَّمن، من دون إرادتي، ومن دون قدرة لي على التَّدخُّل أو التأثير. لم أصدِّق، لحظةَ بدأت الأنباء تتواتر عن حملة اعتقالات في صفوف التيَّارات السِّياديَّة، مسرحها بلدة العاميَّة، أنطلياس، أن أمرًا كهذا يمكن أن يحدث في لبنان. خلتني في عصر همجي لم يَرِدْ في بال من يستكشفون حقبة ما قبل التاريخ؛ في نظام "مَوْزيٍّ" لم ترقَ إليه بعد أكثر الأنظمة توتاليتارية وتسلُّطًا واستبدادًا؛ في لحظة خارج أيِّ زمن.

صمت مطبق على الصَّعيد الرسمي، في انتظار تنفيذ أمر المهمَّة، خفية عن عيون النَّاس، حاولت ملأه بالاتِّصال بمن تعرَّفت إليهم، قبل ساعات، ممن سيقوا إلى التَّحقيق، لأقبض على الحقيقة من مصدرها. كانت خطوطهم الهاتفيَّة جميعًا مقفلة. سألت دهشتي: هل يعقل أن يكونوا، عن بكرة أبيهم، معتقلين؟ وُفِّقت بأحدهم، استطاع النجاة من الطَّوق، روى لي ما حدث... والصَّمت، في الجهة المقابلة، يُطبق أكثر فأكثر، على الأثير والصدور.

عرفت ما أرادت السُّلطة، ولكن أريد موقفًا من فم الضحايا... سمعت "إنَّها راشيا الجديدة". لم أفهم.

خلعت ثوب السَّهرة، ونزلت ببزَّة الميدان إلى الميدان، أستقصي ما يحدث. كان كل شيء يدور في الظلام، لم أشاهد، لم أسمع، لم أشهد. بئس اللَّحظة التي ولدت فيها. لعنها الله. لِمَ أنا، يا ربُّ؟ لِمَ لَمْ تُبْعِدْ عني تلك الكأس؟

... وأنا اليوم، وبعد ثلاثة أعوام، أقول: كان يمكنني، ويمكن ما تلاني في التاسع من آب، وما بعد، أن نكون معركة استقلال جديدة، لكنَّه لم يتحقَّق.

كانت السلطة في أوج جنونها الغاضب، من الصِّراعات اليومية بين متولِّيها، على تحديد حجم كل منهم، فأراد جزء منها أن ينتقم من الجزء الآخر، ردًّا على ما أفرزته المسمَّاة انتخابات نيابية العام 2000، علمًا أن سبب خسارة الجزء الغاضب ليس سوى الغباء في إدارة الحملة الانتخابية في مواجهة الخصوم...

وكانت السُّلطة نفسها في أوج حنقها على تلاقي لبنانيين اثنين، على تلاقي اللبنانيين، بما يسقط مشروعها العثماني القائم على "فرِّق... تسد"، لتكون الكراسي ومغانم المناصب لها ولأزلامها فحسب. فبطشت بما أوتيت من قوَّة ذاتية أو مستعارة، ولكن خارج حلبة الصراع، فانتقت ضحاياها من صفوف السياديِّين، حتى لا تشوِّه أكثر صورتها المشوَّهة أصلاً، وتطيل عمر المسخ... كرمى لعيني مرجعيون.

أما المعارضة فلم تكن على مستوى ذاك الحدث. بعضها خاف وابتعد، مستهولاً تهم الخيانة والعمالة والإنقلاب التي ألصقت بالمعتقلين. بعضها الثاني هادن، بحجَّة العقلانية، وفتح أقنية حوار وتسويات مع الجلاَّدين. بعضها الثالث أعلى صوته صراخًا بلا فعل، فكان صدًى في واد. بعضها الرَّابع أكمل المواجهة... وما زال، مستمدًّا من إيمان اللبنانيين وتوقهم إلى الحرية والسِّيادة والاستقلال، ذخيرته.

لم تكن ثمة خطة مواجهة موحدة للمعارضة، في وجه السلطة التي عادت ولملمت أشلاءها، ما دام الخصم الهدف ليس من عدادها! لا بل عرَّت نفسها بنفسها، حين أصرت على تمرير قانون لأصول المحاكمات الجزائية، في المجلس النيابي، فخذلها النواب. لتعود بعد أسبوعين، لا أكثر، فتطرحه عليهم... وتسقط ورقة التين عن نواب الأمَّة أنفسهم. لحسوا تواقيعهم، واستسلموا صاغرين.

وأمَّا المجتمع المدني، نقابات وجمعيات وهيئات... فما كان في مستوى اسمه. لا اجتماع ولا مدنية ولا رؤية. بل أصوات متفرقة، صادقة ومتحمسة... ليس إلاَّ.

هكذا سقطت راشيا الجديدة، ضحية هذه السلوكات... ومن ثم على وقع انهيار البرجين في نيويورك، في 11 أيلول. أفرج عن الجميع، لكن سيف المحاكمات ما زال مصلتًا، مذذاك، على رقابهم. وبقيت قلَّة، أدَّت شهادتها سجنًا ومضايقات...

وفيما شهوة السلطة إلى التَّوقيف والإعتقال دائمة الجوع، لا تشبع، أرى اليوم سوط عدل يجلد ضمير السلطة، ويعلي الصوت براءة وتبرئة للملاحقين، وهذا ما يمحو لعنتي على نفسي. وأراها تشتعل جذوة المقاومة في نفوس السياديين وتتوهج، يومًا بعد يوم... وهذا ما يعزيني، ويجعلني أؤكد أن موعدها مع راشيا الجديدة، مهما طالت جولة الباطل، قريب قريب.

يبقى أن أسأل: لماذا حمَّلتني السُّلطة وزر انقلاب كان سيحدث، على ما زعمت، لتبرر حملتها تلك؟ فأين الإنقلاب وما كان هدفه وخطته؟ ومن هم رموزه؟

ويبقى أن تسمح لي بأن أختم شهادتي، بقصيدة لك، نظمتَها في ذكراي الأولى، من سجنك، وأنت إحدى ضحاياي، علَّني أنال غفران جميع الضحايا:

عَمْ يِحْبسو:
مَبْدا، وكِلْمي، وْأَهْل حِرِّيّي
وْرَح يْضَلُّنْ،
بِحِقْدُنْ يِحْبسو،
تَ يِشْبَعو خَوْف وْظِلِمْ.
مَبْروك إِلْنا حَبْسنا
شَمْس وْفَرَحْ وِعْياد
وِمْواسِمْ فِدا،
وْمَبْروك، يا بْلادي، عْلَيْنْ
وَحْدُنْ... أَكاليل العَتِمْ.

.... هذا غيض من فيض... والبقية تأتي.

مع محبتي
حبيب